الأنوار النعمانية

لمؤلفه

العالم العامل والكامل الكامل صدر الحكماء ورئيس العلماء

السيد نعمة الله الجزائري

طاب ثراه وجعل الجنة مثواه

المتوفى سنة ١١١٢

قدم له وعلق عليه

محمد علي القاضي الطباطبائي

الجزء الأول

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

واختلاف كالجنود المجموعة إذا تقابلت وتواجهت، ومعنى تقابل الأرواح ما جعل الله لها من السعادة والشقاوة والأخلاق في مبدأ الخلق، يقول إنّ الأجساد التي فيها الأرواح تلتقي في الدنيا وتأتلف وتختلف على حسب ما خلقت عليه، ولهذا ترى الخيّر يحبّ الأخيار ويميل إليهم، والشرير يحبّ الأشرار ويميل إليهم.

وروي عن الباقر عليه السلام قال إنّ العباد إذا ناموا خرجت أرواحهم إلى السماء فما رأت الأرواح في السماء فهو الحق وما رأت في الهواء فهو الأضغاث، ألا وإن الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف فإذا كانت الروح في السماء تعارفت وتباغضت فإذا تعارفت في السماء تعارفت في الأرض، وإذا تباغضت في السماء تباغضت في الأرض وحيث عرفت مثل هذا فلا بأس بمعرفة أحوال الطينة لأنها مناط فوائد كثيرة.

نور طيني يكشف عن احوال طينة المؤمن وغيره

اعلم أن الله سبحانه بمقتضى حكمته خلق طينة المؤمن من أعلى علّيين وهو أعلى مكان في الجنّة وطينة الكافر وهو غير المؤمن من سجّيل وهي أسفل مكان في النّار لكنه خلط بين الطينتين لمصالح كثيرة، روى الصدوق قدس الله روحه في آخر كتاب علل الشرائع مسنداً إلى أبي إسحاق الليثي قال قلت لأبي جعفر عليه السلام يا ابن رسول الله أخبرني عن المؤمن المستبصر إذا بلغ في المعرفة وكمل هل يزني؟ قال اللهمّ لا قلت فيلوط قال اللهمّ لا قلت فيسرق قال اللهمّ لا قلت فيشرب الخمر قال لا قلت فيأتي كبيرة من هذه الكبائر أو فاحشة من هذه الفواحش قال لا قلت فيذنب ذنباً قال نعم هو مؤمن ملذنب ملمّ قلت ما معنى ملمّ قال الملمّ بالذنب الّذي لا يلزمه ولا يصرّ عليه، قال فقلت سبحان الله ما أعجب هذا لا يزني ولا يلوط ولا يسرق ولا يشرب الخمر ولا يأتي كبيرة من الكبائر ولا فاحشة فقال لا عجب من أمر الله إن الله عزّ وجلّ يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون فمم عجبت يا إبراهيم سل ولا تستحسر ولا تستنكف، فإنّ هذا العلم لا يتعلمه مستكبر ولا مستحسر قلت يابن رسول الله إنّي أجد من شيعتكم من يشرب ويقطع الطريق ويخيف السبيل ويزني ويلوط ويأكل الربى ويرتكب الفواحش، ينتهاون بالصّلاة والصّيام والزّكاة ويقطع الرحم ويأتي بالكبائر فكيف هذا ولم ذاك؟ فقال يا إبراهيم وهل يختلج في صدرك شيء غير هذا قلت نعم يابن رسول الله أخرى أعظم من ذلك، فقال ما هي يا أبا إسحاق؟ قال فقلت يابن رسول الله وأجد من أعدائكم ومن ناصبيكم من يكثر من

الصلاة ومن الصيام ويخرج الزكاة ويتابع بين الحجّ والعمرة، ويحرص على الجهاد ويصل الأرحام ويقضي حقوق إخوانه ويواسيهم من ماله، ويتجنّب شرب الخمر والزنا واللواط وسائر الفواحش فمتّ ذاك فسّره لي يا ابن رسول الله، وبرهنه وبيّنه فقد والله كثر فكري وأسهر ليلي وضاق ذرعي، فتبسّم الباقر عليه السلام ثمّ قال خذ إليك يا إبراهيم بياناً شافياً فيما سألت، وعلماً مكنوناً من خزائن علم الله وسرّه، أخبرني يا إبراهيم كيف تجد اعتقادهما قلت يابن رسول الله إني أجد محبّكم وشيعتكم على ما هم فيه ممّا وصفته من أفعالهم لو أعطي أحدهم ما بين المشرق والمغرب ذهباً وفضّة لأن يزول عن ولايتكم ومحبّتكم إلى موالاة غيركم وإلى محبّتهم ما زال ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيكم ولو قتل فيكم، ولا ارتدع ولا رجع عن محبّتكم وولايتكم وأرى الناصب على ما هو عليه ممّا وصلته من أفعالهم لو أعطي أحدهم ما بين المشرق والمغرب ذهباً وفضّة لأن يزول عن محبّة الطواغيت وموالاتهم إلى موالاتكم، ما فعل ولا زال ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيهم ولو قتل فيهم ما ارتدع ولا رجع، وإذا سمع أحدهم منقبة لكم وفضلاً اشمأزّ من ذلك وتغيّر لونه ويرى كراهية ذلك في وجهه بغضاً لكم ومحبة لهم، قال فتبسّم الباقر عليه السلام ثمّ قال يا إبراهيم من ههنا هلكت العاملة الناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية، ومن أجل ذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ويحك يا إبراهيم أتدري ما السبب والقصّة في ذلك وما الّذي قد خفي على النّاس منه، قلت يابن رسول الله فبيّنه لي واشرحه وبرهنه؛ قال يا إبراهيم إنّ الله تبارك وتعالى لم يزل عالماً قديماً خلق الأشياء لا من شيء، ومن زعم أنّ الله عزّ وجلّ خلق الأشياء من شيء فقد كفر لأنّه لو كان ذلك الشيء الّذي خلق منه الأشياء قديماً معه في أزليّته وهويّته كان ذلك الشيء أزلياً، بل خلق عزّ وجلّ الأشياء كلّها لا من شيء وممّا خلق الله عزّ وجلّ أرضاً طيّبة ثمّ فجر منها ماءً عذباً زلالاً فعرض عليها ولايتنا أهل البيت فقبلتها، فأجرى ذلك الماء عليها سبعة أيّام ثمّ طبقها وعمّها ثمّ نضب ذلك الماء عنها فأخذ من صفوة ذلك الطين طيناً فجعله طين الأئمّة عليهم السلام ثمّ أخذ ثفل ذلك الطين فخلق منه شيعتنا ولو ترك طينكم يا إبراهيم على حاله كما ترك طيننا لكنتم أنتم ونحن شيئاً واحداً، قلت يابن رسول الله فما فعل بطينتنا، قال أخبرك يا إبراهيم خلق الله عزّ وجلّ بعد ذلك أرضاً سبخة خبيثة منتنة ثمّ فجر منها ماءً أجاجاً آسناً مالحاً فعرض عليها ولايتنا أهل البيت فلم تقبلها فأجرى ذلك الماء عليها سبعة أيّام ثم طبقها وعمّها، ثمّ نضب ذلك الماء عنها، ثمّ أخذ عصارة ذلك الطين

فخلق منه الطغاة وألفتهم ثمّ مزجه بمثل طينتكم ولو ترك طينهم على حاله ولم يمزجه بطينكم لم يشهدوا الشهادتين ولا صلّوا ولا صاموا ولا زكّوا ولا حجّوا ولا أدّوا أمانة ولا أشبهوكم في الصور وليس على المؤمن أكره من أن يرى صورة عدوه مثل صورته، قلت يابن رسول الله فما صنع بالطينتين؟ قال مزج بينهما بالماء الأول والماء الثاني ثمّ عركها عرك الأديم.

ثمّ أخذ من ذلك قبضة فقال هذه إلى الجنّة ولا أبالي، وأخذ قبضة أخرى وقال هذه إلى النار ولا أبالي، ثمّ خلط بينهما فوقع من سنخ المؤمن وطينته على سنخ الكافر وطينته، ووقع من سنخ الكافر وطينته على سنخ المؤمن وطينته، فما رأيته من شيعتنا من زنا، ولواط، وترك صلاة، أو صيام أو حجّ، أو جهاد أو خيانة، أو كبيرة من هذه الكبائر فهو من طينة الناصب وعنصره الّذي قد مزج فيه لأنّ من سنخ الناصب وعنصره وطينته اكتساب المآثم والفواحش والكبائر، وما رأيت من الناصب ومواظبته على الصّلاة والصيام والزكاة، والحجّ، والجهاد، وأبواب البرّ، فهو من طينة المؤمن وسنخه الّذي قد مزج فيه، لأنّ من سنخ المؤمن وعنصره وطينته اكتساب الحسنات، استعمال الخير واجتناب المآثم فإذا عرضت هذه الأعمال كلّها على الله ﷻ قال أنا عدل لا أجور ومنصف لا أظلم وحكم لا أحيف ولا أميل ولا أشطط، ألحقوا الأعمال السيّئة التي اجترحها المؤمن بسنخ الناصب وطينته، وألحقوا الأعمال الحسنة التي اكتسبها الناصب بسنخ المؤمن وطينته، ردّوها كلّها إلى أصلها فإنّي أنا الله لا إله إلّا أنا عالم السرّ وأخفى، وأنا المطلع على قلوب عبادي لا أحيف ولا أظلم ولا ألزم أحداً إلّا ما عرفته منه قبل أن أخلقه، ثمّ قال الباقر عليه السلام اقرأ هذه الآية، قلت يابن رسول الله أية آية، قال قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩] هو في الظاهر ما تفهمونه وهو في الباطن هذا بعينه يا إبراهيم إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً ومحكماً ومتشابهاً وناسخاً ومنسوخاً ثمّ قال أخبرني يا إبراهيم عن الشمس[1] إذا طلعت وبدا شعاعها في البلدان أهو بائن من القرص، قلت في حال طلوعه بائن قال

(١) المراد والله اعلم أن شعاع الشمس بعد طلوعها وارتفاعها يبين وينفصل من قرصها ويصل إلى الأقطار والبلدان فإذا غابت ينصل الشعاع بها ويغيب معها كذلك طينة الناصب مع سيئاته وأوزاره تنفصل عن المؤمن بعد الموت والمغيب عن الدنيا وتعود إلى الناصب، وطينة المؤمن مع حسناته وأبواب بره وخيره تنفصل عن الناصب وتعود إلى المؤمن (منه ﷺ تعالى).

أليس إذا غابت الشمس اتصل ذلك الشعاع بالقرص حتى يعود إليه، قلت نعم قال كذلك يعود كلّ شيء إلى سنخه وجوهره وأصله، فإذا كان يوم القيامة نزع الله سنخ الناصب وطينته مع أثقاله واوزاره من المؤمن، فيلحقها كلّها بالناصب وينزع سنخ المؤمن وطينته مع حسناته وأبواب برّه واجتهاده من الناصب، فيلحقها كلّها بالمؤمن أفترى ههنا ظلماً أو عدواناً، قلت لا يابن رسول الله قال هذا والله القضاء الفاصل، والحكم القاطع، والعدل البيّن، لا يسأل عمّا يفعل، وهم يسألون، هذا يا إبراهيم الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين.

قال الليثي فقلت يابن رسول الله ما أعجب هذا تؤخذ حسنات اعدائكم فترد على شيعتكم وتؤخذ سيئات محبّيكم فترد على مبغضيكم، قال إي والله الّذي لا إله إلاّ هو فالق الحبة وبارئ النسمة وفاطر الأرض والسماء، ما أخبرتك إلاّ بالحقّ ولا أنبأتك إلاّ بالصدق، وما ظلمهم الله وما الله بظلاّم للعبيد وإن ما أخبرتك به لموجود في القرآن كلّه، قلت هذا بعينه يوجد في القرآن، قال نعم يوجد في أكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن، أتحبّ أن أقرأ ذلك عليك، قلت بلى يا ابن رسول الله، فقال قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣] الآية، قال أزيدك يا إبراهيم قلت بلى يابن رسول الله قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] أتحب أن أزيدك قلت بلى يابن رسول الله قال: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، يبدل الله سيئات شيعتنا حسنات ويبدل الله حسنات أعدائنا سيئات وجلال الله ووجه الله إنّ هذا لمن عدله وإنصافه لا راد لقضائه ولا معقّب لحكمه وهو السميع العليم.

ألم أبيّن لك أمر المزج والطينتين من القرآن؟ قلت بلى يابن رسول الله قال اقرأ يا إبراهيم ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [النجم: ٣٢]، يعني من الأرض الطيّبة والأرض المنتنة، ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]، يقول لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه لأنّ الله عزّ وجلّ اعلم بمن اتّقى منكم فإنّ ذلك من قبيل اللّمم وهو المزج، أزيدك يا إبراهيم قلت بلى يابن رسول الله قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف:

٢٩-٣٠] يعني أئمة دون أئمة الحق، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] خذها إليك يا أبا إسحاق فوالله إنّه لمن عزيز أحاديثنا، وباطن سرائرنا ومكنون خزائننا وانصرف ولا تطلع على سرّنا أحداً إلاّ مؤمناً مستبصراً فإنّك إن أذعت سرّنا بليت في نفسك ومالك وأهلك وولدك.

وعن عليّ بن الحسين عليه السلام، قال إنّ الله تعالى خلق النبيّين من طينة علّيين، قلوبهم وأبدانهم وخلق قلوب المؤمنين من تلك الطينة، وجعل أبدان المؤمنين من دون ذلك وخلق الكفّار من طينة سجّين قلوبهم وأبدانهم فخلط بين الطينتين، فمن هذا يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر المؤمن، ومن هنا يصيب المؤمن السيئة، ومن هنا يصيب الكافر الحسنة فقلوب المؤمنين تحنّ إلى ما خلقوا منه، وقلوب الكافرين تحنّ إلى ما خلقوا منه.

وقال الصادق عليه السلام الطينات ثلاث: طينة الأنبياء، والمؤمن من تلك الطينة إلاّ أن الأنبياء هم من صفوتها هم الأصل ولهم فضلهم والمؤمنون الفرع من طين لازب كذلك لا يفرّق الله عزّ وجلّ بينهم وبين شيعتهم وقال طينة الناصب من حمأ مسنون، وأمّا المستضعفون فمن تراب لا يتحوّل مؤمن عن إيمانه، ولا ناصب عن نصبه ولله فيهم المشيئة وفي آخر عن الصادق عليه السلام قال إن الله عزّ وجلّ لما أراد أن يخلق آدم عليه السلام بعث جبرائيل عليه السلام في أوّل ساعة من يوم الجمعة، فقبض بيمينه قبضة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا[1] وأخذ من كلّ سماء تربة، وقبض قبضة أخرى من الأرض السابعة العليا إلى الأرض السابعة القصوى، فأمر الله عزّ وجلّ كلمته فأمسك

(١) توضيح معنى الحديث الشريف والله اعلم إنّ جبرائيل عليه السلام قبض بأمر الله تعالى من تربة السماوات قبضة ومن تربة الأرضين قبضة أخرى فأمسك بأمر الله سبحانه التربة المأخوذة من السماوات بيمينه والأخرى، بشماله وقوله فلق الطين فلقتين أي شقه حصتين بيان كالتأكيد للأول والمراد إنّ كلمة الله وهو جبرائيل عليه السلام فرق بين التربتين ولم يخلطهما وقوله عليه السلام فذرأ يحتمل أن يكون ذرأ مهموزة بمعنى خلق كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أي خلقنا وقول العرب هم ذرء النار أي خلقوا لها فلا بد من تقدير مضاف والمعنى أنّه تعالى خلق من الطينة المأخوذة من السماوات خلقاً ومن الطينة المأخوذة من الأرض خلقاً آخر وقوله عليه السلام بقال للذي بيمينه الخ بيان لماهية الخلقين ويحتمل أن يكون واوية بمعنى التفرقة والإطارة كما في قوله تعالى: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥] وقوله سبحانه: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١] والمضاف المذكور مقدر هنا أيضاً والمراد أنّه تعالى فرق الطينتين ذرات واطارها في الجو (منه عفي عنه).

القبضة الأولى بيمينه والقبضة الأخرى بشماله، ففلق الطين فلقتين فذرأ من الأرض ذرءاً ومن السماوات ذرءاً فقال للّذي بيمينه منك الرسل والأنبياء والأوصياء والصدّيقون والمؤمنون والسعداء ومن أريد كرامته فوجب لهم ما قال كما قال وقال للّذي بشماله منك الجبّارون والمشركون والكافرون والطواغيت ومن أريد هوانه وشقوته، فوجب لهم ما قال كما قال.

ثمّ إن الطينتين اختلطتا جميعاً، وذلك قول الله ﷻ: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، فالحبّ طينة المؤمنين التي ألقى الله تعالى عليها محبّته، والنوى طينة الكافرين الذين نأوا عن كلّ خير وإنّما سمّي النوى من أجل أنّه نأى عن كلّ خير وتباعد عنه، وقال الله ﷻ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [يونس: ٣١]، فالحيّ الّذي يخرج من الميّت هو المؤمن الّذي تخرج طينته من طينة الكافر والميّت الّذي يخرج من الحيّ هو الكافر الّذي يخرج من طينة المؤمن، فالحيّ المؤمن والميت الكافر، وذلك قوله ﷻ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فكان موته اختلاط طينته مع طينة الكافر، وكان حياته حين فرّق الله ﷻ كذلك يخرج الله ﷻ المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله فيها إلى النور ويخرج الكافر من النور إلى الظلمة بعد دخوله إلى النور وذلك قوله ﷻ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

وقال الصادق عليه السلام: إنّ الله خلقنا من علّيين وخلق أرواحنا من فوق ذلك وخلق أرواح شيعتنا من علّيين، وخلق أجسادهم من دون ذلك فمن أجل ذلك القرابة بيننا وبينهم وقلوبهم تحنّ إلينا، وعن الصادق عليه السلام: إن الله خلقنا من نور عظمته ثمّ صوّر خلقنا من طينة مخزونة مكنونة من تحت العرش فأسكن ذلك النور فيه فكنّا نحن خلقاً وبشراً نورانيّين، لم يجعل لأحد في مثل الّذي خلقنا منه نصيباً، وخلق أرواح شيعتنا من طينتنا وأبدانهم من طينة مخزونة مكنونة أسفل من ذلك الطينة، ولم يجعل الله لأحد في مثل الّذي خلقنا منه نصيباً، إلاّ للأنبياء ولذلك صرنا نحن وهم النّاس وسائر النّاس همج النّاس وإلى النار.

أقول: هذا بعض أحاديث الطينة، وقد روي في هذا المعنى أخبار كثيرة بأسانيد متعدّدة، تركنا نقلها حذراً من التطويل، ولأنّها في المعنى راجعة إلى ما ذكرناه، ولا بدّ من الكلام على هذه الأخبار والكشف عن معناها، لأنّ ظاهرها أن يكون الإنسان في هذا العالم مجبوراً على كلّ أفعاله وليس له اختيار إذ أفعاله بمقتضى الطينة،

فيخرج هو عن حالة الاختيار وتكون هذه الأخبار دليلاً لمن قال بأنّ العبد مجبور على أفعاله، كالأشاعرة ومن حذا حذوهم فنقول الكلام فيها يتمّ ببيان أمرين: الأول في تصحيح ألفاظها فنقول قول أبي إسحاق الليثي المؤمن المستبصر المراد به من يكون له بصيرة تامة في أمور الدين وأمّا توله ﷺ: اللهمّ لا في الزنا وما بعده، ونفيه صدور هذه الكبائر منه، فهو إشارة إلى ما يحقّقه ﷺ بعيد هذا من أن سبب ارتكاب المؤمن هذه الكبائر هو مزج الطينتين فهذه الذنوب وإن صدرت منه ظاهراً وهو آثمة لها لكنّها في الحقيقة قد كان مصدرها غيره وهو الماء الّذي دخل في طينته حال المزج بطينة الكافر، فالكافر في الحقيقة هو الفاعل لهذه الأفعال.

وقوله ﷺ ملمّ وما ذكره في تفسيره إشارة إلى قوله سبحانه في صفة المؤمنين ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣١-٣٢]، فالزنا وما ذكر بعده من كبائر الذنوب وفواحشها، واللّمم ما قل من الذنب وصغر، من قولهم ألمّ بالمكان إذا قلّ فيه لبثه وألمّ بالطعام قلّ منه أكله كالنظرة والغمزة والقبلة، وقيل المراد باللّمم كلّ ذنب لم يذكر الله عليه حدّاً ولا عقاباً، وقوله ﷺ: ولا تستحسر، معناه: ولا تملّ استفعال من حسر إذا أعيا وتعب، وقوله فكيف هذا ولم ذاك أي كيف صدرت منه هذه الذنوب، ولم تفيتها عنه سابقاً مع وقوعها منه ظاهراً، ويجوز أن يكون قوله ﷺ ولم ذاك تأكيداً لسابقه بقرينة ما سيأتي وقوله وضاق ذرعي معناه إنّي عجزت عن البلوغ إليه من قولهم مددت ذراعي إليه، فبلغه ذراعي ومددت ذراعي إليه فقصر عنه ذراعي، لأنّ تناول المحسوسات إنّما يكون باليد غالباً واتّسع فيه فاستعمل في تناول المعقولات، والطواغيت هم فلان وفلان وفلان ومن حذا حذوهم.

وقوله ﷺ: العاملة الناصبة إشارة إلى الآية وهي: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية: ١-٥]، وفسّرت تارة بأنّها عاملة في النّار عملاً تتعب فيه، وهو جرّها السلاسل والأغلال، وارتقاؤها دائبة في صعودها وهبوطها، وأخرى بأنها عملت ونصبت في الدنيا في أعمال لا تجديها نفعاً في الآخرة، وهذا يؤول إلى ما أراده ﷺ هنا فإن المراد هنا أنّها عاملة لأعمال الخير ظاهراً، ولكنّها نصبت العداوة لأهل بيت نبيّها ولمحبّيهم، فلا ينفعها ما عملت والآنية الحارّة التي بلغت منتهاها، وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا﴾ [الفرقان: ٢٣] الآية، فالمراد بها أعمالهم

الحسنة كصلة الرحم والعبادات، والهباء ما يخرج من الكوّة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار، وفي الأخبار أن الله سبحانه في القيامة يأمر لجماعة بأعمالهم الحسنة، فتؤتى إليهم وهم ينظرون إليها من بعيد بيضاء نقيّة كالشباب القبطيّة، فيفرحون بها فيكونون في أشد ما يكون من الحاجة إليها، فإذا قربت إليهم أرسل الله إليها ريحاً عاصفة، ففرّقتها في الهواء وجعلتها هباءً منثوراً وهذا هو أحد معاني قوله سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقوله عليه السلام: فعرض عليها ولايتنا أهل البيت يدلّ على ما قدّمناه من أن الله سبحانه قد أعطى الجمادات نوعاً من الشعور، والفهم تعرف به خالقها ومبدعها، وتسبّحه وتعرف به أولياءه الحجج على الخلق وبه قبلت بعضها ولاية الأئمة عليهم السلام فمن قبلتها كانت أرضاً حلوة محلاً للنماء والزرع، ومن لم يقبلها من الأرض كانت مالحة منتنة سبخة ليس فيها مدخل للخير بوجه من الوجوه وقد عرضت على الحيتان فمن قبلها صار مباركاً حلال الأكل ومن لم يقبلها كان خبيثاً حرام الأكل لا يأكله إلاّ المخالفون كالجري وأشباهه وكذلك الطيور وكذا ضروب المخلوقات والثمار الحلوة والمرّة والبقول.

وقوله عليه السلام: أجاجاً آسناً الأجاج المالح الشديد الملوحة، والآسن المتغيّر الريح، والسنخ الأصل من كلّ شيء وأمّا قوله: ﴿أَوْزَارَ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] الآية، فانطباقه على ما هنا مشكل، وذلك لأنّ مخالفينا لم يضلّونا، ويمكن أن يراد إما إضلال علمائهم لجهالنا فإنه قد يقع وإن كان نادراً، وإمّا أن يكون تشبيهاً وتمثيلاً لحمل الأوزار، وفائدته نفي الاستبعاد من أن يكون الإنسان في القيامة يحمل أوزار غيره وآثامه ولعلّ هذا هو الأولى، والأصوب في الجواب أن يقال المراد أن ما يقع من المؤمنين من الذنوب والمعاصي إنما هو بسبب مزج الطينة وسراية ماء طينة الكافر، فكان الّذي أضلّ المؤمن حتى ارتكب الفواحش هو الكافر، فالكافر قد أضل المؤمن وهو لا يعلم، لأنّ مناطه ما وقع في العالم الأولي وكلّ منهما قد نسيه.

وأما قول عليّ بن الحسين عليه السلام من طينة علّيين، فالمراد بالعلّيين إمّا السماء السابعة، وإما أعلى مكان في الجنّة كما قاله أهل اللغة وسجّين أسفل مكان في النار وقوله عليه السلام قلوبهم وأبدانهم الظاهر أن المراد بالقلوب هنا الأرواح، بقرينة ما سيأتي، أطلق عليها لشدّة العلاقة بينهما فإنّ أهل المعقول من الحكماء والأطبّاء قالوا إنّ الروح إنّما تتعلق أوّلاً بالقلب وتبعث منه إلى الأعضاء.

وقوله: لازب قال في القاموس لزب الطين ككرم لزق وصلب، وقوله من حمأ مسنون الحمأ الطين الأسود المنتن، والمسنون المنتن، وأمّا قوله وأمّا المستضعفون الظّاهر أن المراد منهم مستضعفو المخالفين، وهم من لم يعاند على الحق ولم يتعصّب عليه ولم يبغض أحداً من المؤمنين على الدين، وهم طائفة من جهّال أهل الخلاف وقول الصادق عليه السلام بعث جبرائيل عليه السلام (اه) لا ينافي ما تقدّم، من أن الملك الّذي أخذ الطينة هو ملك الموت، وأمّا جبرائيل فقد رجع عن أخذ التربة، لأنّ التي رجع عن أخذها جبرائيل عليه السلام، هي طينة أبينا آدم وحدها، وهذه المأخوذة هي طينة كلّ المخلوقات من آدم وأولاده ويحتمل العكس.

الأمر الثاني في الكشف عن معناها. فنقول قد سلك الأصحاب رضوان الله عليهم فيها مسالك مختلفة، أولها ما صار إليه سيّدنا الأجلّ علم الهدى طاب ثراه من أنّها أخبار آحاد مخالفة للكتاب والإجماع فوجب ردّها، فلذلك طرحها كما هو مذهبه في أخبار الآحاد أينما وردت، وذلك لأنّ الكتاب والإجماع قد دلاّ على أن صدور الحسنة والسيّئة إنّما هو باختيار العبد، وليس فيه مدخل للطينة بوجه من الوجوه.

والجواب أن أصحابنا قد رووا هذه الأخبار بالأسانيد المتكثّرة في الأصول وغيرها فلم يبق مجال في إنكارها، والحكم عليها بأنّها أخبار آحاد بل صارت أخباراً مستفيضة بل متواترة؛ وأما مخالفتها للكتاب والإجماع فسيأتي الجواب عنه.

وثانيها: ما ذهب إليه ابن إدريس رحمه الله من أنّها أخبار متشابهة يجب الوقوف عندها وتسليم أمرها إليهم عليهم السلام فإنّ كلامهم متنوع كالقرآن إلى محكم ومتشابه ونحو ذلك، وهذا أقرب من الأوّل وأسلم عاقبة منه لكن يرد عليه أن هذه الأخبار قد ألقاها الأئمة عليهم السلام إلى آحاد الشيعة، للتفهم والتعليم وإن يعتقدوا معانيها كما ألقيت إليهم ولعلّهم قد فهموا معانيها بقرائن الحال والمقال.

وثالثها: ما صار إليه بعض المحدّثين من حملها على المجاز والكناية كما يقال في العرف لمن أسدى خيره إلى عباد الله وحسن خلقه: هذا رجل قد عجنت طينته بفعل الخير وحبّ الكرم والتقوى، وهذا في غاية البعد بل حمل هذه الأخبار خصوصاً الخبر الأوّل على مثل هذا غير محتمل بوجه من الوجوه، وإن احتمله بعض أخبار هذا الباب.

ورابعها: وهو المشهور في تأويل هذه الأخبار وما ضاهاها ممّا ظاهره الجبر

ونفي الاختيار الوارد في كلّ الأخبار من أنّه منزل على العلم الإلهي، فإنّه سبحانه قد علم الأشياء قبل وجودها كعلمه بها بعد وجودها وقد علم في الأزل أحوال الخلق في الأبد وما يأتونه وما يذرونه بالاختيار منهم، فلمّا علم منهم هذه الأحوال وأنّها تقع باختيارهم عاملهم هذه المعاملة، كالخلق من الطينة الخبيثة المنتنة والأحوال السابقة. روى الصدوق طاب ثراه بإسناده إلى ابن أبي عمير قال سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله الشقيّ من شقي في بطن أمّه، والسعيد من سعد في بطن أمّه؛ فقال الشقيّ من علم الله عزّ وجلّ وهو في بطن أمّه أنّه سيعمل أعمال الأشقياء والسعيد من علم الله عزّ وجلّ وهو في بطن أمّه أنّه سيعمل أعمال السعداء، قلت فما معنى قوله صلى الله عليه وآله اعملوا فكلٌّ ميسّر لما خلق له؟ فقال إنّ الله عزّ وجلّ خلق الجنّ والإنس ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه؛ وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فيسر كلاً لما خلق له فالويل لمن استحبّ العمى على الهدى، وهذا الحديث الشريف يكشف عن فرد واحد من أفراد هذه المقالة، ولكن الظّاهر أن حكم ما عداه حكمه لاتحاد الطريق.

وخامسها: ما خطر بالبال ولكن أخذاً من الطاهرين عليهم السلام، وحاصله أنّه قد تحقّق من الأنوار السابقة أن خلق الأرواح قد كان قبل خلق عالم الذرّ؛ وقد أجّج سبحانه ناراً وكلّف تلك الأرواح بالدخول؛ فمنهم من بادر إلى الامتثال ومنهم من تأخّر عنه ولم يأت به، فمن هناك جاء الإيمان والكفر ولكن بالاختيار؛ فلمّا أراد سبحانه أن يخلق لتلك الأرواح أبداناً تتعلق بها لكل نوع من الأرواح نوعاً مناسباً له من الأبدان كان جعل للأرواح الطيّبة أبداناً مثلها؛ وكذا للأرواح الخبيثة؛ فيكون ما صنع بها سبحانه جزاءً لذلك التكليف السابق؛ نعم لمّا مزج الطينتين أثّر ذلك المزج في قبول الأعمال الحسنة وضدّها، فإن قلت إذا كان الحال على هذا المنوال، فلأيّ شيء قال الصادق عليه السلام لأبي إسحاق الليثي لا تطلع على سرّنا أحداً إلاّ مؤمناً وإذ اطّلعت غيره على هذا ابتليت في نفسك ومالك وأهلك، وما معنى هذه التقيّة ومن أيّ فريق تكون.

قلت يجوز أن تكون هذه التقيّة من المخالفين، فإنهم إذا فهموا هذا العلم علموا من القرائن أن ليس المراد بأهل الشمال المذكورين في الخبر إلّا هم ومثل هذا مما يتّقي فيه قطعاً، ويجوز أن تكون تقيّة أو إبقاءً على الشيعة، فإنّ عوامهم إذا سمعوا بمثل هذا أقبلوا على الإتيان بأنواع المحارم والذنوب، فيكونون قد أتوا ذنوباً تزيد

على ما يقتضيه مزج الطينتين، لأنك قد تحققت أن اللمم - وهو الصغائر القليلة - قد يفعله المؤمن بمقتضى مادّته وطبيعته، وأمّا الكبائر كالزنا واللواط ونحو ذلك، فهو إنّما يفعلها بمقتضى ما وصل إليه من خلط الطينات، فإذا أطلع على مثل هذا الحديث، وتعمّد أفعال الكبائر لحصول اللذة الدنيوية، ولعلمه بأنّ وبالها الأخروي إنّما هو على غيره، فقد أتى بفعل من مادّته وطينته، وزاد على ما أتى إليه من خبث المزج، لأنّ معاصي المزج هي المعاصي المتعارفة الوقوع في كلّ الأعصار بمقتضى الدواعي، وأمّا إذا كان الداعي ما عرفت من أنّها ذنوب على الغير وأن فعلها هو فلا يكون فعلها من المعاصي المتعارفة، فيكون إنّما أتى بها مته ومن مادّته لا من قضيّة المزج، فتأمّل وتفكّر في هذا المقام وقد بقي ههنا أبحاث شريفة وشّحنا بها شرحنا على الصحيفة.

نور علمي تقديري

يكشف عن بعض أحوال علمه القديم وتقديره الأزلي سبحانه وتعالى. اعلم أن الملّيين قد ذهبوا إلى أن علمه تعالى يعمّ المفهومات كلّها، الممكنة والواجبة والممتنعة ويحيط بالكلّيات على الوجه الكلّي، وبالجزئيّات على الوجه الجزئي؛ وقد خالف في هذا الدهريّة وقدماء الفلاسفة؛ وافترقوا فيه ستّ فرق.

الفرقة الأولى: من الدهريّة ذهبوا إلى أنّه لا يعلم نفسه قالوا لأنّ العلم نسبة والنسبة لا تكون إلاّ بين شيئين متغايرين، ولا تغاير بين الشيء ونفسه؛ والجواب منع كون العلم نسبة بل هو إنّما عين الذات أو صفة حقيقيّة ذات نسبة إلى المعلوم؛ ونسبة الصفة إلى الذات ممكنة سلّمنا كونه نسبة لكن لا نسلّم أن الشيء لا ينسب إلى ذاته نسبة علميّة؛ فإنّ التغاير الاعتباري كافٍ لتحقّق هذه النسبة؛ وكيف لا يكون كذلك وأحدنا يعلم نفسه مع عدم التغاير بالذات.

الفرقة الثانية: من قدماء الفلاسفة من قال أنّه لا يعلم شيئاً أصلاً تعالى عمّا يقول الكافرون علوّاً كبيراً؛ ودليلهم أنّه لو علم لعلم نفسه؛ إذ على تقدير كونه عالماً بشيء يعلم أنّه يعلمه وذلك يتضمّن علمه بنفسه؛ وقد بيّنا امتناعه في مذهب الفرقة الأولى؛ والجواب أن مبنى هذا على قول الفرقة الأولى؛ وقد عرفت الجواب عنه.

الفرقة الثالثة: قالوا إنّه عالم بذاته؛ ولكن ليس عالماً بغيره؛ واستدلوا عليه بأنّ العلم بالشيء غير العلم بغيره من الأشياء الأخر وإلا يلزم أن من علم شيئاً علم جميع